أحاديث إصلاح القلوب

(٣٨)

أمثال القران

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَلاَ تَحُتُّ وَرَقَهَا فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ وَثَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَلَمَّا لَمْ يَتَكَلَّمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم هِيَ النَّخْلَةُ فَلَمَّا خَرَجْتُ مَعَ أَبِي قُلْتُ يَا أَبَتَاهْ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَهَا لَوْ كُنْتَ قُلْتَهَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا قَالَ مَا مَنَعَنِي إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَرَكَ ، وَلاَ أَبَا بَكْرٍ تَكَلَّمْتُمَا فَكَرِهْتُ. متفق عليه

وقد خرج هذا الحديث مخرج التفسير لقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}

فهذا مَثَلٌ بديعٌ عظيمُ الفائدةِ، مُطابقٌ لما ضُرِب له تمام المطابقة، وقد بدأه الله بقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً}.

أي: ألم ترَ بعين قلبِك فتعلمَ كيف مثّل الله مثلاً وشبّهه شبهـًا للكلمة الطيّبة كلمة الإيمان، وختَمَه بقوله: {وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. أي: أن القصد من ضرب هذا المثل وغيرِه من الأمثال هو تذكيرُ الناس ودعوتُهم إلى الاعتبار وعقلِ الخطاب عن الله.

ولاشك أنَّ هذا البدء والختم في الآية فيه أعظم حَضٍّ على تعلُّمِ هذا المثل وتَعَقُّلِه، وفيه دلالة على عِظم شأن الأمثال المضروبة في القران، وأهمية عقلها وتعلمها، فإنها من أعظم دلائل الإيمان التي اشتمل عليها القرآن وبها تتّضح حقيقتُه، وتستبينُ تفاصيلُه وشعبُه، وتظهرُ ثمرتُه وفوائدُه.

والمَثَلُ هو عبارة عن قولٍ في شيء يُشبِه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة لتبيين أحدهما من الآخر وتصويره، ولا ريب "أنَّ ضربَ الأمثالِ مما يأنسُ به العقلُ، لتقريبها المعقول من المشهود، وقد قال تعالى- وكلامه المشتمل على أعظم الحِجَج وقواطع البراهين-: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ} ، وقد اشتمل منها [أي القرآن] على بضعة وأربعين مثلاً، وكان بعضُ السلف إذا قرأ مثلاً لم يفهمه يشتدُّ بكاؤُه ويقول: لست من العالِمين" وكان قتادة يقول: "اعقلوا عَنِ الله الأمثال".

والله سبحانه وتعالى ضرب في القرآن أمثالا كثيرة، جلُّها في بيان التوحيد وتقرير الإيمان وإبطال الشرك ، وما من شك أن التفكر في هذه الأمثال المضروبة في القرآن يعد حياةً للقلوب ويقظةً لها من غفلتها ؛ ولهذا قال سبحانه في خاتمة الآية: {وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} وهذا نظير قوله تعالى: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } ، فإن المثل من شأنه أنه يُقَرّب المعاني إلى الأذهان، كما قال تعالى: { ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ } [الروم:٢٨] أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ، وفي القرآن أمثال كثيرة يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها إلى أقوم السبل فتكون صلاحا لقلوبهم وأعمالهم.

قال ابن القيم رحمه الله: "ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر".

وهذه وقفة مع مثل ضربه الله في القران لبيان قوة تأثير القرآن على القلوب، لما تحوي عليه آياته المحكمات ومواعظه المؤثرات وهداياته النافعات من

تأثيرٌ عظيم على القلوب.

قال الله عز وجل: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر:٢١] .

قال السعدي رحمه الله: "هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف ، لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان، وتليق لكل أحد".

وقد بيَّن الله جل وعلا قوة تأثير القران بأنه لو أُنزل على جبل لتصدع من خشية الله؛ وإذا كان هذا شأن الجبل في قوة تأثير القرآن عليه وهو جبلٌ أَصَمُّ صُلْبٌ مُصْمَتٌ لتصدع من خشية الله فما الشأن في قلب الإنسان ؟! .

قال ابن القيم رحمه الله: "وقد أخبر عنها ـ أي الجبال ـ فاطرُها وباريها انه لو انزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب"

فالواجب على المسلم أن يعتبر بهذا المثل ، وأن يتعظ ، وأن يعمل على

أن يكون للقرآن أثر على قلبه ، وأن يكون منتفعا بهدايات القرآن ، وأن يتفقد نفسه فيما كان فيها من إخلال وتقصير في هذا الجانب العظيم .

وما من شكٍ أن هذا التأثر للقرآن الكريم متوقف على حسن التدبر لآياته والتأمل في معانيه والعقل لدلالاته ، لا أن يكون حظ الإنسان منه مجرد القراءة بل لابد من تأمل ، حتى وإن احتاج التأمل من المرء أن يقف مع آية واحدة يومًا أو ليلة كاملة، لأن التأثر به والانتفاع موقوف على حُسن التدبر ، والله سبحانه وتعالى إنما أنزل هذا الكتاب لتتدبر آياته كما قال جل وعلا : {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص:٢٩] ، وجاء في غير ما آية من كتاب الله عز وجل الحث على تدبر القرآن والإنكار على من ضيَّع ذلك وفرط فيه وأهمله ، قال الله عز وجل : {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء:٨٢] ، وقال جل وعلا : {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد:٢٤] .

وأخبر الله جل وعلا أن تدبر القرآن وتأمل معانيه أمنة للعبد من الضلال وسلامةٌ له من الباطل ، فقال سبحانه : { قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } [المؤمنون:٦٦-٦٨] أي لو أنهم تدبروا القول لما نكصوا على الأعقاب ولما كانوا من أهل الضلال ؛ فتدبر القول الذي هو القرآن أمنة للعبد

من الضلال وسلامة له من الغواية وحمايةٌ له من الباطل وحصنٌ له من كل شر.

وهكذا الشأن في الاستشفاء بالقرآن كما قال الله سبحانه: {وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ }[يونس:٥٧] وقال سبحانه: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }[الإسراء:٨٢] ؛ فالقرآن شفاء للصدور من أدوائها وأسقامها وأمراضها ، وشفاء لها من أمراض الشبهات وأمراض الشهوات ، وفيه حل لكل المشكلات التي تعرض للإنسان والعقبات التي تقف في طريقه ، ولكن لا يصل المرء إلى ذلك ولا ينتفع بهدايات القرآن الكريم إلا إذا وفق للتدبر والتأمل في معانيه.

وعليه فإن العبد في هذا المقام تجاه القرآن الكريم يحتاج إلى إحسان مع القرآن في ثلاثة أبواب : إحسان في القراءة، وإحسان في الفهم، وإحسان في العمل .

وليحذر من الهجر للقرآن قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا }[الفرقان:٣٠] وهو يتناول ذلك كله.

قال ابن القيم رحمه الله: "هجر القرآن أنواع أحدها هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه، والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وان قرأه وآمن به والثالث هجر تحكيمه والتحاكم اليه في أصول الدين وفروعه واعتقاد

أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به وكل هذا داخل في قوله وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وإن كان بعض الهجر أهون من بعض".

فالعبد لا يكون تاليًا للقرآن حق التلاوة إلا بهذه الأمور الثلاثة ؛ قال الله تعالى : {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}[البقرة:١٢١] ، وقد بيَّن العلماء رحمهم الله تعالى أن تلاوة القرآن تشمل هذه الأمور الثلاثة بما في ذلك العمل ؛ فإن العمل بالقرآن يعد تلاوة للقرآن ، فمن صلى وأحسن في صلاته، ومن صام وأحسن في صيامه ، وحج وأحسن في حجه ، وبر والديه وأحسن في بره ، وتصدق وأحسن في صدقته فهذه كلها تعد تلاوة للقرآن ؛ لأن اتباع ما جاء به القرآن من تلاوة القرآن، والله سبحانه يقول:{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}[الشمس:٢] أي تبعها ، فاتباع القرآن تلاوة له ، بل لا يكون تاليا للقرآن حقا حتى يعمل بالقرآن، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ)) فقيده بهذا القيد «الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ» بمعنى أنه لا يكون من أهله إلا بالعمل به ، ومن المعلوم أن العمل بالقرآن فرع عن التأمل والتدبر

والفهم للقرآن الكريم ، لا أن يكون حظ المرء من القرآن مجرد التلاوة وإقامة الحروف دون إقامة لحدود القرآن ، وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : «أُنزل هذا القرآن ليُعمل به ، فاتخذ الناس قراءته عملا» ؛ أي جعلوا العمل بالقرآن هو قراءته فقط ، والقرآن أنما أنزل ليُعمل به لأن فيه هدايات وإخراجا من الظلمات وإرشادا إلى الحق والهدى وبيانا للطاعات ، ولا يستقيم لعبد تحقيق ذلك إلا إذا أحسن التدبر ثم أحسن العمل.

فما أحوج قلوبنا إلى القرآن الكريم معرفةً بعظمته وإدراكًا لمكانته واهتداءً بهداياته ولزومًا لما يدعو إليه من صلاح العباد وفلاحهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم ، ويعينُ العبد على تحقيق هذا المطلب إدراكه أن القران كلام رب العالمين وتنزيل العلي الحكيم أنزله سبحانه هدايةً للعباد وصلاحًا للناس يخرجهم به من الظلمات إلى النور ، ومعرفته بصفات القرآن العظيمة ونعوته الجليلة الدالة على عظيم مكانته ورفعة شأنه ؛ لتكون هذه المعرفة عونًا له على الإقبال على القرآن تدبرًا واهتداءً بهداياته العظيمة .

قال الله تعالى : {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[المائدة:١٥-١٦] جمعت هاتان الآيتان الكريمتان سبع صفات عظيمة للقرآن :

الأولى في قوله جل وعلا :{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ} ؛ فهو كتاب منزلٌ من رب العالمين ، تكلم الله جل وعلا به وسمعه منه جبريل ، ونزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}[الشعراء:١٩٢-١٩٤] ، ومن نبينا عليه الصلاة والسلام سمعه الصحابة الكرام ، ومن الصحابة سمعه تابعوهم ، ومن التابعين تابعو الأتباع ، وهكذا تلقاه الآخِر عن الأول بالأسانيد المضبوطة مصونًا محفوظا مؤيدا بتأييد الله جل في علاه {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر:٩]

الثانية: في قوله {نُورٌ} ؛ أي يهتدى به في الظلمات ، فيستضيء به السالك وينجو بإضاءته من المهالك ، فلا هداية إلا بنور القرآن ، ولا خروج من الظلمات بأنواعها والشرور بأصنافها ولا نجاة إلا بنور القرآن.

الثالثة والرابعة في قوله جل وعلا : { وَكِتَابٌ مُبِينٌ } ؛ «كتاب» بمعنى مكتوب وهو من الكتب وهو الجمع والضم ، لأنه جمع العلوم والأخبار والقصص والأحكام على أتم الوجوه وأكملها وأتقنها وأحسنها. وقوله جل وعلا {مُبِينٌ} أي للحق موضح له مرشدٌ إليه يهدي العباد إلى التي هي أقوم ويدلهم إلى التي هي أرشد ، ففيه بيان مصالح العباد كلها ومنافعهم جميعها في دنياهم وأخراهم .

الخامسة في قوله جل وعلا : { يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } ؛ فهو كتابٌ فيه هداية العباد إلى سبل السلام ، أي طرق الخير ودروبه ، وهي شعب الإيمان وخصال الدين المتنوعة العظيمة.

والسادسة: في قوله جل وعلا { وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ } فهو كتابٌ يخرج العباد من الظلمات بأنواعها ؛ ظلمات الكفر والبدعة والمعصية والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم وذكر الله جل في علاه.

السابعة في قوله في تمام هذا السياق: { وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي سبيلٍ قويمٍ واضحة بينة يصل من خلالها العبد إلى رضوان الله والفوز بجنات النعيم ، وهو دينه الذي رضيه لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام:١٥٣] .

نسأل الله جل وعلا أن يرزقنا قلوبًا معظمةً للقرآن ، مدركةً لمكانته ، معتنيةً به ، متدبرةً له ، مهتديةً بهداياته ؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.